المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:07، العدد:01 (2023)، ص314-332

دور الطرق الصوفية في دعم الحكم العثماني بالجزائر ما بين القرنين 16-18م

The role of the Sufi orders in supporting the Ottoman rule in Algeria between the 16th-18th centuries

أماني سعدالي*
مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر
جامعة بسكرة (الجزائر)
amani.saadali@univ-biskra.dz

وافية نفطي
مخبر دراسات في التاريخ، ثقافة ومجتمع
جامعة بسكرة (الجزائر)
ouafia.nafti@univ-biskra.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/02/27
تاريخ القبول:
2023/05/19

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الطرق الصوفية
- ✓ الحكم العثماني
- ✓ التبعية
- ✓ الجزائر

الملخص:

احتلت الطرق الصوفية مكانة في المجتمع الجزائري، إذ كان لها دور لا يستهان به في أحداث عدة قبل التواجد العثماني، ما جعل هذه الأخيرة تتخذها كإحدى الدعائم الأساسية لتثبيت حكمها بالبلاد والحفاظ على استمراريته مدة ثلاثة قرون، نتيجة مكانتهم الروحية في المجتمع وتحالفهم مع العثمانيين في الجهاد ضد الخطر المسيحي على الجزائر. هدف هذه الدراسة هو تبيان مدى فعالية هذه السياسة المتبعة من قبل العثمانيين، ومدى استجابة متصوفة الجزائر لها، وقد ركزت إشكالية الدراسة على الدور الجهادي والسياسي للطرق الصوفية بإبراز مدى مساهمتهم في دعم الحكم العثماني بالجزائر، من خلال تبيين مكانة التصوف في الدولة العثمانية وفي المجتمع الجزائري، والذي ساهم بشكل كبير في اتباع الحكام العثمانيين بالجزائر إستراتيجية معينة تجاه الطرق الصوفية، جعلت شيوخ هاته الطرق يساهمون بدورهم في دعم وتثبيت الحكم العثماني، وقد أثمرت نتائجها فكانت إحدى السياسات العثمانية الناجحة بالجزائر إلى حد كبير.

Article info

Received:
27/02/2023
Accepted:
19/05/2023

Key words:
- ✓ Sufi orders
- ✓ Ottoman rule
- ✓ Subordination
- ✓ Algeria

Abstract:

The Suffi Orders had occupied an important place in the Algerian Society, as it had a significant role in several events prior to the Ottoman presence, which made it as one of their main pillars in establishing their ruling in the country and preserve its continuity for three centuries, because of their spiritual position and their alliance with the Ottomans in Jihad in Algeria. The aim of this study is to show the effectiveness of their policy and the reaction of the Algerian Suffis to it, focusing on the political role the Suffi orders had played by highlighting the extent of Suffism position and their contribution to the support of the Ottoman governance in Algeria, which resulted in a specific strategy played by the Ottoman governors towards the Suffi orders that eventually gained them major successfull policy results.

*المؤلف المرسل

مقدمة

اتبعت الدولة العثمانية لتوسيع نفوذها وتثبيت حكمها عدة سياسات تتوافق معها ومع المجتمعات التابعة لها، فالعثمانيون لم يلتزموا بنظام حكم خاص، بل تبنوا في الغالب ما وجدوه قائما من نظم وقوانين محلية في مختلف ولاياتها ومن بينها الجزائر، فبعد ما تم إلحاقها بالدولة العثمانية سنة 1519 أيقن العثمانيون أن تثبيت حكمهم بها واستمراريته مرتبط بمدى تقربهم من القوى الأكثر فعالية وتأثير آنذاك، وهم شيوخ الطرق الصوفية لما لهم من حضور ديني واجتماعي كبير وحتى سياسي، إلى درجة أن هذه الفئة أضحت تشكل قوة حيوية أطرت المجتمع ودعمته في محاربة التحرشات الإسبانية.

والمعلوم أن التجربة الصوفية قد ساهمت قبل هذا وبشكل كبير في مسار تشكل الدولة العثمانية، لذلك اعتمدوها علاوة على إدراكهم لحجم تأثير المد الطرقي على المجتمع، فتقربوا منهم واتخذوهم حلفاء لهم لتثبيت أقدامهم بالمنطقة، غير أن الدارس للعلاقة بين العثمانيين ورجال الطرق الصوفية في الجزائر لا يجد صورة واحدة لها، بل كانت الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية المحيطة بهم، هي الفاعل الأساسي المتحكم في طبيعة هذه العلاقة.

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تبين لنا مدى مساهمة الطرق الصوفية في تثبيت حكم العثمانيين بالجزائر وديمومته، كما أنها توضح جانبا مهما وهو الوزن الاجتماعي والسياسي للمتصوفة، والذي منحهم دور الوسيط بين السلطة الزمنية المتمثلة في العثمانيين والقاعدة الاجتماعية.

والملاحظ أن موضوع الطرق الصوفية خلال العهد العثماني قد تناولته العديد من الدراسات كأبي القاسم سعد الله رحمه الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول والرابع، والعديد من المقالات، المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني للعيد مسعود والذي نُشر سنة 1988، وكذلك مذكرة ماجستير حول حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي لصباح بعارسية، وإن تطرقت هذه المواضيع لطرق الصوفية خلال العهد العثماني بصفة عامة ومبرزين أهمها، غير أننا في هذه الدراسة حاولنا التركيز على حيثيات العلاقة السياسية بين رجال الطرق الصوفية والحكام العثمانيين بالجزائر مع تحديد وتحليل العوامل التي تحكم هذه العلاقة وتُوجهها وما ترتب عنها من نتائج.

أما هدفنا من الدراسة هو معرفة مكانة الطرق الصوفية في المجتمع، والتي كان لها دور في اعتماد العثمانيين عليهم لتوطيد حكمهم بالجزائر، ومعرفة كذاك مدى نجاح سياسة التقرب من شيوخ الطرق الصوفية التي تبنتها الدولة العثمانية، حتى تبقي على استمرارية حكمها بالجزائر، نتيجة إيقانهم بحجم تأثير وانسجام الحركة الصوفية مع البنية الذهنية للمجتمع آنذاك، والذي أضفى هالة من التقديس للمتصوفة، لدرجة أنه عندما تعتقد فئة من المجتمع ما في شيخ أو في طريقة ما، فإنها تتشبث به ولا تحيد عن تعاليمها أبدًا.

إن البحث في موضوع دعم الطرق الصوفية للحكم العثماني فترة وجوده بالجزائر فرض علينا طرح الإشكالية التالية: **إلى أي مدى ساهمت الطرق الصوفية في دعم الحكم العثماني بالجزائر؟**

وبناء على هذا الطرح تمت معالجة الموضوع بالاعتماد على المنهج الوصفي اقتضاء لطبيعة البحث الذي يركز على تتبع مسار العلاقة بين مختلف الحكام والطرق الصوفية طيلة العهد العثماني بالجزائر، والمنهج التاريخي الذي اعتمدناه بالأساس لتحليل العوامل التي تحكمت في هذه العلاقة، وتبيين أثرها في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر. وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى العناصر التالية:

1. مكانة التصوف في الدولة العثمانية

ارتبط التصوف بالدولة العثمانية ارتباطا جذريا، فكانت منطقة ما وراء النهر موطن العثمانيين بيئة نشطة ساهمت في انتشار التصوف وتقويته نتيجة تجمع واحتكاك ثقافات وأديان عدة (المعبدي، 2007-2008، ص 49)، وبعد استقرار العثمانيين ببلاد الأناضول وسقوط دولة السلاجقة والزحف المغولي على المنطقة، ونتيجة ما عاشته من أحداث واضطرابات، كان أهاليها بحاجة إلى السكينة الروحية، ومع وجود تعايش إسلامي بمختلف مذاهبه كان الأناضول بيئة خصبة لانتشار التصوف، وفي ظل هذه الأجواء الروحية تأسست الدولة العثمانية، وكانت الطرق الصوفية مساندا أساسي لها، لذلك منح السلاطين العثمانيون كعثمان وابنه أورخان الكثير من الامتيازات لشيوخ الطرق الصوفية ببلاد الأناضول، وجعلوهم قوة عسكرية اعتمدوها في توسعاتهم (عبد العال، 2009، ص 9-12).

حتى أنهم لما أقاموا جيش منظم على عهد أورخان وشكلوا أول فرقة عسكرية منه، وُجه لشيخ الطريقة البكطاشية للتبرك به، بأن وضع يده على رأس أحد الجنود، ما جعل السلطان يأمر بإلباس كل الجنود قلنسوة من الصوف الأبيض رمزا لِكُمِّ الشيخ الذي تدلى على رأس الجندي عند مباركته (جبري، 2019، ص 135)، ولقّبهم بـ "**يني تشاري**"، الذي حُرّف عربيا ليصبح إنكشاري (المحامي، 1981، ص 123)، وهنا يتبين لنا جليا التأثير الروحي للطريقة الصوفية على العثمانيين، فقد استندوا على التصوف في أهم المرتكزات والتي هي إقامة الدولة وتشكيل الجيش (بري ممدوح ، 2019، ص 37)، وربما هذا التأثير الطرقي كان له دور حتى في توسعات آل عثمان، مستغلين مدى انتشاره في المناطق المرجو التوسع على حسابها، وهذا ما سنراه في مد الحكم العثماني على الجزائر والذي كانت من بين أحد سياساته التقرب من شيوخ الطرق الصوفية والاعتماد عليهم في تثبيت الحكم (معاشي، 2015، ص 251).

2. مكانة الطرق الصوفية في الجزائر

يعود انتشار الحركة الصوفية في الجزائر لما قبل مجيء العثمانيين، وكان بها شيوخ لهم مكانة وصيت بكل ربوع المغرب العربي كعبد الرحمان الثعالبي(1379-1471) وإبراهيم التازي (ت 1462) ومحمد بن يوسف السنوسي (1428-1490) (الحسني، 2006، ص 48، 194، 383) والكثير ممن سبقهم (سعد الله، 1998، ص 459)، والجدير بالذكر أن الطرق الصوفية لم يقتصر انتشارها على منطقة معينة بالجزائر بل شملت القطر بأكمله، فتلمسان شهدت على مرور أزمنة طويلة ظهور الكثير من المتصوفة ذوي مكانة ووزن اجتماعي شغلوا

مناصب مهمة، فكان من هؤلاء الفقهاء أعيانا للمدينة (ابن مريم، 1908، ص 73)، والحال نفسه كان ببجاية التي اعتبرت مركز إشعاع طرقي فترة طويلة (جاب الله، 2013، ص 136).

وحول خارطة انتشار الطرق الصوفية في الجزائر عامة يشير أبو القاسم سعد الله إلى أن كل من الطريقة الشاذلية، القادرية، التيجانية، الطيبية، الدرقاوية والزيانية عرفت انتشار واسع بالغرب، أما المنطقة الشرقية للبلد فقد تمركزت بها كل من الطريقة الرحمانية، الحنصالية والشابية وكذلك القادرية والشاذلية (سعد الله، 1998، ص 188)، والمعلوم أن الطريقة القادرية كانت قد ساندت الوجود العثماني في بداياته (سعد الله، 1998، ص 513-514).

إن المتتبع للطرق الصوفية وشيوخها يلاحظ بلا شك دورها البارز في التأثير على حياة المجتمع الجزائري، جراء مرتكزاتها وما قدمته من وظائف، بحيث أن أهم صفة ارتكزت عليها شخصيات المتصوفة عموما هي الصلاح والتقوى، إلى جانب هذا فبعض المتصوفة ينسبون أنفسهم لآل البيت، ما جعلهم محل احترام وتوقير من قبل الأهالي (العجيلي، 1992، ص 36-37)، كما قام شيوخ الطرق الصوفية بوظائف عدة أوكلت لهم، ولعل أهمها:

1.2. نشر التعليم والحفاظ على الهوية

حرص المتصوفة على نشر العلم والمعرفة (العقبي، 2002، ص 58)، العامل الذي ساعد بشكل كبير على انتشار الزوايا في مناطق عديدة حيث اتخذوها مركزا للتعليم، فساد فيها ما يعرف بالتعليم التقليدي الذي كان يُلقن لكل الفئات الاجتماعية، والذي اقتصر في البداية على تدريس الحديث والفقه ليشمل بعد ذلك علوم أخرى كالتصوف والقراءات واللغة العربية، وبهذا الشكل ساهم الصوفية كثيرا في نشر الثقافة الدينية في المجتمع المغاربي بصفة عامة، وحتى الطلبة الذين تلقوا التعليم على أيديهم حال عودتهم إلى قراهم أسسوا زوايا ونشروا فيها ما تعلموه (بونابي، 2004، ص 235-236).

وبهذا الشكل شاع التصوف أكثر في كل ربوع الجزائر وأصبح لشيوخه صدى واسع، فالمعلوم أن للدين والتعليم مكانة مرموقة لدى المجتمع الجزائري (بونابي، 2004، ص 228)، ومن هذا نستنتج أن اعتماد المتصوفة على ثنائية الدين والتعليم واتخاذهما ركيزة تواجدهم بالمنطقة، جعلهم ينالون من الاحترام والتقدير الكثير في الأواسط الاجتماعية، ومن خلال هذه المكانة التي اكتسبوها إضافة إلى نشاطات اجتماعية أخرى قاموا بها، سيكون لتوجههم ونظرتهم حيال الأوضاع صدى وتأثير على قرارات المجتمع.

2.2. التكافل الاجتماعي

لم تكن زوايا المتصوفة محلا للتعليم فقط، بل كانت كذلك مأوى للفقراء وعابري السبيل، وجراء هذا خُصصت لها أوقاف عديدة لخدمتها (نفطي، 2016-2017، ص 80)، كما كانت محل لفك النزاعات ونشر مبادئ الدين الإسلامي من رحمة وتسامح، هذا ما أكسب المتصوفة القائمين على هذه الأعمال مكانة ووزن

اجتماعي، كما كان للمتصوفة جراء هذا تأثير روحي على مختلف فئات المجتمع، وجعلهم أصحاب كلمة مسموعة (العقبي، 2002، ص 325).

فضلا عن الأعمال التي قدمها رجال التصوف لخدمة السكان، فإن المجتمع الجزائري في حد ذاته قد ترسخت لديه فكرة احترام وتبجيل الطرق الصوفية وشيوخها، ولم تكن هذه وليدة العهد العثماني، بل منذ عهود سابقة له، فكل من الدولة الصنهاجية والحمادية والمرابطية المتعاقبة على حكم المنطقة قد شجعوا على انتشار التصوف، وكان الحكام أنفسهم متصوفون، ما جعل الجميع يخضع لهم ويحترمهم حد الطاعة (بونابي، 2004، ص 85-86).

ومن مظاهر انتشار التصوف بالجزائر خاصة وبلاد المغرب عامة قبل الوجود العثماني، أن شيوخ الطرق الصوفية في بداياتهم كانوا قد تعايشوا مع المرابطين في رباطاتهم مبدين احتراما لهم، ليحلوا محلهم في الأخير (Depont & Coppolani, 1897, p. 149)، وبما أن الجميع يعلم مدى الاحترام والتقدير الذي يبديه المجتمع للمرابطين (العيد، 1988، ص 8)، فبالتالي قد انتقل آليا لأصحاب الطرق الصوفية فأصبحوا ذو وزن أكثر.

3.2. الحفاظ على مبادئ الدين الإسلامي

الوظيفة الجوهرية التي اختصت بها الطرق الصوفية هي الوظيفة الدينية سواء كانت بالمدينة أم الريف (العروي، 2009، ص 28)، وكان شيوخ الطرق الصوفية يسعون لنشر عقائدهم والحفاظ على مبادئ الدين الإسلامي بين أتباعهم، كما عرفوا بالعزلة والعبادة فقط، مبتعدين بذلك عن كل ما يلهيهم في الحياة الدنيا، وبالتالي طبعت شخصية المتصوف بطابع الزهد والتقوى، فاحتل بها مكانة محترمة في الأواسط، بل حتى زوايا المتصوفة اكتست نوعا من القدسية، وأصبح يقصدها الناس من كل جهة ويتبرع لها الجميع (سعد الله، 1998، ص 262-263).

4.2. الوظيفة الاقتصادية

مثلما أشرفت مختلف الطرق الصوفية على المؤسسات المؤطرة للحياة الدينية والعلمية، كان لهم كذلك دور في المجال الاقتصادي، فالزوايا كانت محل لجمع مختلف السلع، لاحتوائها على غرف بمثابة مخازن تُحفظ فيها السلع من السرقة، ولقدسية المكان لا يتجرأ أي أحد على سرقته حتى في حالة غياب حارسه (دوتي، 2014، ص 131).

ليس هذا فحسب، بل كانت زوايا المتصوفة بمكانتها الروحية والاجتماعية تؤّمن حتى الأسواق الشعبية، إذ أن أغلبها كان يُقام بالقرب من الزوايا حتى يتخذونها حرما لهم لحماية وتأمين التبادل التجاري هناك، ومن هذه الأسواق انتشر الكثير، كما يؤمن الشيوخ المتصوفة المسالك التجارية المؤدية للأسواق موفرة بذلك جوا مناسبا لتبادل السلع، ومساهمة بهذا في نشاط التجارة والذي يؤدي إلى استقرار الوضع الاقتصادي وازدهاره (العماري، 2014، ص 133).

علاوة على هذا فقد تداخل الدور الاجتماعي والاقتصادي للزاوية حيث إن كل مداخيلها من صدقات، زكاة، عشور، هدايا وأوقاف سواء كانت نقدية أو عينية (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 21-22، 284)، والتي تزايد عددها بشكل كبير في أواخر القرن 18 -دلالة على أهمية مؤسسة الزاوية- (نفطي، 2016-2017، ص 80_81)، وقد كانت في مجملها موجَّهة للفقراء والمساكين، وحتى لجميع السكان أيام المجاعات والجفاف (العيد، 1988، ص 16-17)، وبالتالي تصبح الزاوية مخزن احتياطي آمن للسكان تساهم به بلا شك في القضاء على الفقر وتسد به الحاجيات المحلية (Depont & Coppolani, 1897, p. 230)، وتضمن إزالة الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين مختلف فئات المجتمع (بوعزيز، 2009، ص 237).

5.2. الوظيفة السياسية

اتخذت طرق الصوفية من المكانة والقداسة الدينية دافعا لخوض غمار السياسة، حيث كان الوضع السياسي بالجزائر (المغرب الأوسط) عشية التواجد العثماني عاملا مساعدا في ذلك، فقد كانت السلطة الزيانية الحاكمة بالجهة الغربية والحفصية المتمركزة بالجهة الشرقية للبلد يعيشان حالة الضعف، والذي انجرت عنه اضطرابات اقتصادية واجتماعية وتهديدات خارجية، تمثلت في التحرشات الإسبانية على المدن الساحلية للبلاد، وأمام هذا الوضع ومع ضعف السلطات السياسية الحاكمة بالمنطقة، ونتيجة للمكانة التي احتلتها الطرق الصوفية في الأواسط الاجتماعية -التي سبق وأن استعرضناها-، أصبحت سلطة شيوخها بديلة للسلطة الزمنية (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 460).

وما كان على هؤلاء الشيوخ سوى حمل راية الجهاد والعمل على نصرة الإسلام والدفاع عنه، وهذا إما كقادة ضد العدو أو عن طريق التوجيهات الروحية والتعبئة الشعبية لما لهم من تأثير في النفوس، وهذا قام به عبد الرحمن الثعالبي الذي دعا سكان مدينة الجزائر للجهاد وتوفير عدة الحرب، الأمر نفسه مع الشيخ محمد التواتي الذي جعل زاويته في بجاية ملجأ للمجاهدين (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 460-461).

فالطرق الصوفية أصبحت بمثابة أداة سياسية معززة بمبررات التقديس الروحي، بل حتى أن دورها أصبح شبيه بدور الأحزاب السياسية -في وقتنا الحاضر- لهم أتباعهم ويؤثرون فيهم، ومثلما سنرى فيما بعد أنهم لعبوا دور الوسيط بين السلطة الحاكمة والقاعدة الاجتماعية، وساهموا بشكل كبير في حفظ الأمن والاستقرار وتحقيق الانسجام بين المؤسسة السياسية الحاكمة والمؤسسة الاجتماعية (غربي، 2018، ص 129-130)، فسلطة المتصوفة منحت المجتمع نوعا من الطمأنينة في ظل أوضاع سياسية متوترة وأخطار خارجية محدقة بالمنطقة (Nacib, 1988, p. 21)، لدرجة أن نفوذهم لدى بعض السكان أصبح يفوق السلطة السياسية الحاكمة آنذاك (Brosselard, 1859, p. 5).

ونتيجة للمكانة التي اكتسبتها الطرق الصوفية، زاد تقدير عامة الناس لهم، إلى جانب تناحر البلد بين سلطتين ضعيفتين -الزيانية والحفصية- عجزتا عن القيام بأدنى واجباتهما، ومع تبني المتصوفة الوظائف

الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذي كرّس الاعتقاد القوي في المؤسسة الصوفية وفي قدرة شيوخها على مواجهة الأزمات المحلية والتصدي للحروب الخارجية، فشكلت بهذا تماسك اجتماعي وأصبح للجميع شعور وحس يمكن تسميته بالوطني ومصلحة مشتركة عززتها أكثر الهوية الدينية للمتصوفة (تركي، 2008، ص 553)، والتي كان لها دور فعال في تشكيل الوعي الجمعي، وعليه فإن البعد السياسي الجديد الذي تبنته الطرق الصوفية أصبح جوهر تجمّع القبائل والسكان حولها، ولم تعد الكرامات هي أساس جلب الأتباع وبنفس التأثير كما كان الحال في السابق (صحراوي، 2012، ص 29).

علاوة على مختلف الوظائف المنوطة للطرق الصوفية، من نشر مبادئ الدين والتعليم ومظاهر التكافل الاجتماعي، فقد نابوا كذلك عن عدة مؤسسات كالمؤسسة السياسية والعسكرية قُبيل الدخول العثماني ورفعوا راية الجهاد وتزعموه (سالم، 2011، ص 87)، فكانت هذه هي الصورة العامة والموضحة لوضع المتصوفة بالجزائر، والتي اتخذت بالأساس من قبل العثمانيين كعامل مهم دفعهم للتحالف معهم بغية تثبيت حكمهم وتدعيمه.

3. إستراتيجية الدولة العثمانية تجاه الطرق الصوفية في الجزائر

نتيجة التحرشات الصليبية الإسبانية التي طالت سواحل بلاد المغرب ككل، وأمام محدودية القوة العسكرية للشيوخ المتصوفة الذين قادوا الجهاد، كان لابد لهم من قوة داعمة لهم وتنصرهم على الخطر المسيحي، فوجدوا في الإخوة بربروس (عروج وخير الدين) اللذان ذاع صيتهم في الحوض الغربي للمتوسط، خير شريك لمساعدتهم وأهالي الجزائر للتخلص من التحرشات، وعلى اعتبار أن الدين هو أساس التواجد العثماني ببلاد المغرب، حيث جاء الإخوة بربروس في إطار مهمة جهادية وهي الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وباعتبارهم غرباء عن الجزائر لغويا وثقافيا نجد أنهم استثمروا جيدا فيما يشتركون فيه والمجتمع الجزائري وهو عامل الدين والجهاد (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 460).

الجدير بالملاحظة أن الإخوة بربروس وبإدراكهم لمدى تأثير شيوخ الطرق الصوفية على عامة المجتمع تقربوا منهم (شاطو، 2018، ص 23)، واتخذوهم حلفاء لهم من البداية، ويعود السبب في هذا التقرب إلى أنهم القوة الأكثر تأثيرا على المجتمع والحاملة لراية الجهاد آنذاك، في ظل تخاذل وتراجع السلطة الزمنية الحاكمة وقلة تأثيرها، عمل الإخوة بربروس على التعاون معهم لصد الخطر الأجنبي، كما لا يمكن إنكار أن طبيعة الدولة العثمانية هي دولة روحية، جاء تشكلها على أساس طرقي صوفي أثّر على كينونة الدولة في أصلها (عبد العال، 2009، ص 12)، وبالتالي جعل حكامها يبحثون عن هذا المأوى في الأقطار المتوسع على حسابها ومن بينها الجزائر، وما كان ليصح لهم ذلك لو لم يكن للتصوف أثر في الجزائر قبل مجيئهم.

كان الإخوة بربروس متشبثين بتعاليم الدين ورافعين لراية الجهاد، ويتضح هذا في صور عدة، فمثلا قبل استقرارهم بالجزائر كانوا متمركزين بتونس، التي كانت قاعدة لهم يشنون منها حملاتهم الجهادية لإنقاذ مسلمي الأندلس (بربروس، 2013، ص 66-70)، وبالتالي هذا الطابع الديني الذي عرفوا به جعلهم يتقربون أكثر من المتصوفة، والمتتبع لعلاقة الحكام العثمانيين مع شيوخ الطرق الصوفية في الجزائر بعد إلحاقها بالدولة العثمانية،

يلاحظ جليا مدى التقارب والتوافق الحاصل بينهما، فكما ذكرنا سابقا أن الرابط المشترك بين الحكام العثمانيين والمجتمع الجزائري هو الدين الإسلامي، والذي كان فعلا أساس تواجد العثمانيين بالمنطقة واستمروا في الاعتماد عليه في تثبيت وجودهم وهذا بالتقرب من شيوخ الطرق الصوفية (شاطو، 2018، ص 23-24).

الملاحظ أن أعداد الجنود العثمانيين بالجزائر آنذاك كان قليلا لا يتعدى بعض المئات (Cat, 1889, p. 240)، ربما يكون هذا السبب الذي جعلهم يبحثون عن قوة لها قاعدة شعبية تدعم نفوذهم وتثبته، وإلى جانب هذا فقد أدرك العثمانيون مدى تأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري ومدى قدسية مكانتها (حمدان، 2005، ص 72)، مع اعتمادهم على ما يُعرف بسياسة المحافظة على الوضع إزاء أي منطقة يضمونها لفضائهم، حيث يبقون الحال على حاله ويحترمون كل ما هو سائد من قوانين، في المقابل يكتفون بالسيادة الرسمية لحكمهم، القاعدة نفسها طُبقت على الجزائر فقد وجدوا السلطة الروحية هي البديل الأساسي للسلطة الزمنية والأكثر تأثيرا على المجتمع، فأبقوا الوضع كما هو وتقربوا منها، فكانت كل هذه الأسباب مجتمعة وراء تقرب العثمانيين بداية تواجدهم بالجزائر من الطرق الصوفية، واعتمادهم على سياسة إستراتيجية في ذلك (معاشي، 2015، ص 5)، وقد استمر هذا التقرب خاصة كلما احتاجت السلطة لذلك وشمل كل أرجاء البلاد تقريبا.

1.3. تحالف الحكام العثمانيين والطرق الصوفية في الجزائر

كان من المنطقي أن يكون هناك تحالف بين العثمانيين وشيوخ طرق الصوفية في الجزائر، فالعدو مشترك المتمثل في التحرشات الإسبانية والهدف كذلك واحد الجهاد وإعلاء راية الإسلام، بل ما يحتاج إلى تبرير أكثر هو استمرارية هذا التحالف واعتمادهم على المتصوفة كقاعدة لتثبيت الحكم العثماني بالمنطقة.

فكانت بداية هذا التحالف من غرب الجزائر أين تحالف عروج بربروس (1512-1518) (دراج، 2012، ص 188)، مع أحمد بن يوسف المليانى، الذي كان له عداء صريح مع الزيانيين، والذي كان من المنطقي أن يتم هذا التحالف، فعروج يبحث عن قوة مؤثرة تساعده، والمليانى هو الآخر لا بد له من قوة تشاركه مجابهة الزيانيين من جهة وحلفاؤهم الإسبان من جهة أخرى، مقابل ألا يتعرضون له ولمن تبعه (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 465)، أما في مدينة الجزائر فقد ساندوا الزاوية الثعالبية (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 93).

السياسة نفسها طبقت بكل المناطق التي وصلت إليها السلطة العثمانية بالجزائر، ولم يكن تقربهم هذا رهين وقت محدود، بل استمروا في اتّباع هذه السياسة طيلة فترة حكمهم للجزائر، فنجد أنهم كثيرا ما كانوا يراسلون الشيوخ المتصوفة ويتحالفون معهم، من أجل دعم حكمهم، وهذا ما قام به يوسف باشا الذي راسل محمد الساسي البوني بمدينة عنابة سنة 1640، يطلب مساعدته في حفظ الأمن بالمنطقة، فرد عليه الشيخ الساسي البوني بالإيجاب، وإلى نفس الأسرة راسل الداي محمد بكداش (1707-1710) الشيخ أحمد بن قاسم بن محمد الساسي البوني سنة 1703 مشيدا به والعائلة وبمساندته له (سعد الله، أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابة، 1979، ص 16-18).

وهذا دليل واضح على أن السياسة العثمانية تجاه شيوخ طرق الصوفية هي سياسة مدروسة، ومقترنة بطيلة فترة حكمهم ومستمرة عبر أجيال أسر المرابطين المتحالفة معهم، وفي المقابل الولاء الطرقي للحكم العثماني كان متوارثا، كما أن استمرارية هذه السياسة والتقرب الدائم من الشيوخ المتصوفة بالإحسان إليهم، دليل واضح على نجاحها في تدعيم حكمهم وعلى مدى تأثير الطرق على المجتمع الجزائري.

ومن جهة أخرى فإن هذا التقرب والتحالف فيه مصلحة للطرفين، فالطرف العثماني يستفيد من التعبئة الشعبية لتوطيد حكمه، وشيوخ الطرق الصوفية هم بدورهم مستفيدين، فالسلطة العثمانية تمنحهم امتيازات مادية ومعنوية، إذ يتم تعيينهم على رأس بعض الوظائف بصفة رسمية أو شرفية، ويتوارثون هذا داخل أسرهم ما دام ولاؤهم للعثمانيين مستمر، وبهذا الشكل يتم ربطهم والسلطة المركزية بالإيالة طيلة العهد العثماني (معاشي، 2015، ص 237).

ومن جهة أخرى، هذا فيه نوع من الرقابة العثمانية على هؤلاء المتصوفة تجنبا لأي حركة تمرد أو معارضة منهم للحكم العثماني، وبمنحهم نوع من القداسة والاحترام وباستشارتهم كذلك في الكثير من المسائل والأخذ برأيهم يُشعر المتصوفة بالثقة، ويزيد من ولائهم للعثمانيين، كما أن مختلف الحكام الذين مروا على الجزائر كثيرا ما كانوا يطلبون دعوات الشيوخ المتصوفة عند إقبالهم على حرب أو أي حدث مهم مع العمل على عدم إيذائهم أو معارضتهم (شاطو، 2018، ص 24-25).

وكانت هذه الإستراتيجية فعالة حققت أهدافا، فمهما كانت نابعة من إيمان خالص وراسخ بالتصوف من قبل العثمانيين، أو أنها جاءت لتحقيق مصلحة شخصية وسياسية لبعض الحكام نتيجة قلة عدد العثمانيين في الإيالة، وعدم قدرتهم على مجابهة مختلف الفئات الاجتماعية التي قدست بأي شكل من الأشكال التصوف، فهذا بلا شك سيفقدهم سلطتهم على المجال، وبالتالي هم ركزوا على أكثر عامل يضمن لهم استمرارية السيطرة على المنطقة في جو من الأمن والاستقرار وهذا بضمانهم تأييد الرأي العام.

2.3. الامتيازات الممنوحة للمتصوفة

منحت السلطة العثمانية القائمة بالجزائر في بدايات عهدها للمتصوفة امتيازات مادية متنوعة كإعطائهم نصيب من غنائم البحر، كما كانوا يقدمون لهم الهدايا في المواسم الدينية إضافة إلى مهمة إدارة الأوقاف (سعد الله، على خطى المسلمين حراك في التناقض، 2009، ص 199-200)، فأغرقوهم في الماديات حتى ينشغلون بها ولا تكون لهم معارضة للحكام، كما كانوا يعفون من دفع الضرائب ويمنحونهم جزءا من جزية أهل الذمة، إلى جانب هذا فقد شُيّدت لهم القباب والزوايا والمساجد، وهذا ما عُرف به محمد الكبير باي وهران (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 469-471)، الأمر الذي يجعلنا دائما في تساؤل عن مصدر هذا التقرب، **هل هو الإيمان الراسخ بالطرق الصوفية باعتبار الدولة العثمانية هي كذلك دولة روحية؟ أم أنه تقرب سياسي مفاده كسب ولائهم لاستمرار حكمهم؟**

من خلال ما وقع من أحداث فإن هذا السؤال يحمل شقين من الإجابة، فالكثير من الشيوخ الذين ادعوا التصوف ما ألحقوا الضرر بالأخلاق العامة للمجتمع، وكان الحكام يتغاضون عنهم، كما أنهم كانوا يقدمون رشوة للحكام حتى لا يعارضون ابتزازهم لأموال العامة وتصرفاتهم المعارضة للدين، والبعض من هؤلاء الحكام دعموا تنافس شيوخ طرق صوفية ضد أخرى وقبضوا مقابل هذا رشوة (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 470-471)، وهناك من الشيوخ من يدّعي أنه يولي المناصب الإدارية، وكان الكثير من أصحابها يترددون عليه حتى يولّيهم المناصب القيادية، فكل هذه الأحداث تصور لنا فعلا أن المصلحة هي أساس العلاقة التي كانت تربط الحكام بشيوخ الطرق الصوفية (الفكون، 1987، ص 136).

غير أن هناك الكثير من الحكام الذين تربطهم فعلا علاقة روحية مع المتصوفة، فعند قدومهم الجزائر يكونون متشبعين بأفكار التصوف المأخوذة عن الطريقة البكداشية، ويجدون فضاء مماثلا لذلك، ما يجعلهم يتقربون من المتصوفة للتبرك بهم، وكان تقربهم هذا عن عقيدة وإيمان (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 459-460).

3.3. مظاهر تقارب الحكام من المتصوفة

من مظاهر سياسة التقرب التي انتهجها الحكام تجاه شيوخ الطرق الصوفية، إلى جانب التبرك بهم كانوا كذلك ينذرون بمنحهم هبات في حال ما حققوا النصر في حرب، فمثلا باي قسنطينة حسين بن صالح (1606-1807) (العنتري، 2007، ص 74)، أخذ على نفسه نذرا في حالة انتصاره على حمودة باشا باي تونس (1782-1814) (الأرقش، الأرقش، وبن طاهر، 2003، ص 66)، يصلح مسجد الشيخ سيدي علي العريان والسيد محمد بن سي السعيد ويموله بوقفه، في المقابل يدعون له بصالح الدعاء (Féraud, 1863, p. 92)، وظاهرة التبرك بالشيوخ في زواياهم بالقباب قبل القيام بالحروب هي عادة موروثة عن آبائهم وأجدادهم في الأناضول، ما يفسر لنا الاعتقاد الراسخ بالطريقة لديهم (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 189-190).

السياسة التي اعتمدها العثمانيون في التقرب من رجال التصوف لم يقتصر هدفها على جعلهم الوسيط بينهم وبين المجتمع من أجل دعم حكمهم، بل اعتمدوا بعضهم حتى كسفراء في الدول المجاورة، فنجد أنهم أرسلوا الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي كممثل لهم لدى حاكم المغرب الأقصى (بكاي، 2011، ص 209)، وهذا دليل على مدى اعتمادهم وثقتهم في شيوخ الطرق الصوفية، ومن جانب آخر هو استمالة الطرف المغربي والرغبة في التأثير عليه، خاصة وأن الحكم في المغرب الأقصى في تلك الفترة قد اعتمد على المد الطرقي في تأسيسه (الأرقش، الأرقش، و بن طاهر، 2003، ص 15)، كما نجد أن خير الدين بربروس (1518-1543) (دراج، 2012، ص 227)، منح أحد أقارب المليانى المدعو محمد بن مرزوقة وظيفة أمير الحجاج والذي يحمل الصرة إلى الحرمين (سعودي، 2018، ص 60).

المتتبع للسياسة العثمانية تجاه المشايخ الصوفية يلاحظ أنها لم تقتصر على بدايات عهدهم من أجل تثبيت الحكم، بل استمرت معهم، إذ نجدهم في القرن السابع عشر اتفقوا مع أسرة المقراني على توليتهم مهمة جمع الأخشاب من بجاية ونقلها إلى مدينة الجزائر، في المقابل يحافظون على إدارة إقليمهم، وأصبحوا يزاحمون بهذا حتى البايات في أقاليمهم، حيث اقتطع الداي سنة 1682 إقليم مجانة من باي قسنطينة ومنحه لهذه الأسرة (سعودي، 2018، ص 63)، والكثير من الحكام كانوا يحترمون عائلات المتصوفة حتى بعد وفاتهم، فقد استمر الحاج أحمد باي (1826-1837) (العنتري، 2007، ص 104، 132) مثل من سبقه من البايات في ختم العمل بالوثيقة التي تنص على احترام وتوقير عائلة الشيخ عبد الرحمن الأخضري (1515-1545) (الحسني، 2006، ص 191) حتى بعد وفاته، واستمر هذا حتى نهاية العهد العثماني (طوبال، 2019-2020، ص 139).

فالسياسة العثمانية تجاه القوى الدينية كانت جد دقيقة ومنحتهم احترام كبير، لدرجة أن كل من يلجأ لهم هروبا من المتابعة يُعفى ولو كان صاحب منصب مهم وعقوبته الموت (سعد الله، على خطى المسلمين حراك في التناقض، 2009، ص 200)، فمثلا لما طلب الشيخ محمد الساسي البوني من يوسف باشا أن يعفو على أهالي عنابة بعد التمرد وافق على ذلك رغم صعوبة الأمر، وتخوفه من أن يفسر هذا العفو بضعف من السلطة الحاكمة، غير أنه احتراما للشيخ محمد الساسي عفا عنهم (سعد الله، أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابة، 1979، ص 18)، وفي هذا إيحاء صريح لمدى احترام الحكام للشيوخ ومدى تقديرهم، فالمعروف عن الدولة العثمانية أنها لن تتساهل ولن تتغافل عمن يُثير الفتن والتمردات ويهدد أمنها وحكمها.

ولم تقف الأمور عند هذا الحد، بل تجاوزت هذه الإستراتيجية الحد السياسي إلى الاجتماعي، فكثيرا ما تزوج الحكام من أسر الشيوخ المتصوفة، مثلا الداي حسين (1818-1830) (حمدان، 2005، ص 135) كان قد تزوج من حفيدة يوسف المليانى (صادق، 1964، ص 105)، وهناك نماذج كثيرة حول هذا النوع من العلاقات، فالتقارب الأسري والمصاهرة توطد العلاقة أكثر ويصبح أتباع الشيخ موالين مباشرة وبشكل دائم للحاكم العثماني، فعدم قدرة السلطة المركزية على ضم المتصوفة ولا الهيمنة عليهم ولا حتى الاستغناء عنهم لوزنهم الاجتماعي، جعل الحكام يتحالفون معهم ويستفيدون منهم قدر الإمكان، ففي نظر الأهالي السلطة الروحية تفوق السلطة الزمنية، فمثلا في حادثة رسو سفينة بين بجاية وجيجل سنة 1720 بسبب العاصفة، والتي كان على متنها زوجة قنصل ملك إسبانيا بالسويد وابنتها البالغة من العمر 14 سنة، والتي تم أخذها من قبل أهالي المنطقة، إلى أن طلب القنصل الفرنسي بالجزائر من حسين داي تحريرهم، غير أنه لم يتمكن من ذلك لولا تدخل أحد المتصوفة بمنطقة وادي الزهور (Filali, 1998, pp. 5-6).

وهذه أحد الأسباب التي جعلت الحكام العثمانيين يهتدون لسياسة التقرب من شيوخ الطرق الصوفية من البداية، حتى يحققون هدف بسط نفوذهم على البلاد، وبالتالي فقد كان لهم الدور الفعال في تثبيت الحكم العثماني في الجزائر ودعم تبعية المنطقة للدولة العثمانية طيلة فترة تواجدهم بها، ومن جهة أخرى ساهم الانقلاب الطرقي

على الحكام العثمانيين بالجزائر وبشكل كبير في تدهور حكمهم وانهياره، ليس هذا فحسب بل وزنهم السياسي كان أكبر من ذلك، إذ كان بعضهم يستقبل بعض الشخصيات السياسية الخارجية، أي أن شيوخ طرق صوفية لم تكن لهم مهمة الوساطة بين الأهالي والحكام فقط، فنجد مثلا السلطان العلوي المولى إسماعيل (1672-1727) (العروي، مجمل تاريخ المغرب، 1999، ص 82)، عندما أرسل وفدا إلى الجزائر من أجل إبرام معاهدة السلام بين الطرفين، كان الشيخ هو أول من استقبلهم (Filali, 1998, p. 7)، وهذا دليل على المكانة التي كان يحظى بها.

على العموم فإن دور المتصوفة وتأثيرهم النفسي كان قد بلغ أوجه خلال القرنين السابع والثامن عشر، ولم يكن يقتصر على الحكام فقط، بل على كل أطياف المجتمع وبما فيهم اليهود والمسيحيين، ولا يمكن لأي أحد تأمين نفسه ومستلزماته دون اللجوء للمتصوف (Filali, 1998, p. 8)، هذا ما يجعلنا نستوعب مدى انتشار الطرق الصوفية في تلك الفترة والسبب في تقديسها، فربما البيئة الاجتماعية كانت خصبة وساهمت في انتشار التصوف وبدرجة كبيرة، والذي دعمته الفئة الحاكمة بدرجة أكبر، فمن خلال أحداث عدة نستنتج أن هناك من كان تقربه يهدف لتحقيق مصلحة آنية ومنهم من كان مصدر هذا التقرب الاعتقاد الراسخ بالتصوف.

عمل العثمانيون على تكييف سياستهم الدينية مع ما يتوافق ومستجدات كل فترة، ففي البداية لما كانوا بحاجة لشيوخ الطرق الصوفية اعتمدوهم كأداة لتثبيت حكمهم بالمنطقة، واستمرت المعاملة على حالها طالما هم بحاجتهم، لكن لما تحكم الأتراك بزمام الأمور بدأوا يتخلون عن الشيوخ الصوفية وبدأت سياستهم تتغير، بحيث كانت مرنة قابلة لأن تتصف بالتقارب أو بالتنافر، بحسب ما يتطلب الظرف، وبحسب شخصية الحاكم نفسه، فمنهم من كان لا يقول بسلطة الطرق الصوفية، وبالتالي تتميز علاقته معهم بالتنافر، مثال هذا صالح باي (1771-1792) الذي انتهج سياسة صارمة تجاه الطرق الصوفية والأسر الدينية بصفة عامة، فأراد إخضاعهم كبقية فئات المجتمع لنظام ضريبي واحد، وأراد أن ينزع منهم حق التصرف بأوقاف المساجد (معاشي، 2015، ص 261).

الأمر نفسه بالنسبة للظروف التي كانت تمر بها الإيالة، ففترة الرخاء الاقتصادي ولما كانت موارد البحر كثيرة كان هناك تقارب بينهم، غير أنه وبسبب شح الموارد التجأ الحكام إلى استخدام القوة مع الجميع وبما فيهم شيوخ الطرق الصوفية، لكن في الوقت نفسه هم بحاجة لهم لحفظ الأمن وضمان استمرارية الجباية، ما يجعلهم في اضطرار دائم إلى استرضاء المتصوفة (العروي، مجمل تاريخ المغرب، 1999، ص 76).

وبالتالي فإن تأثير شيوخ الطرق الصوفية على السياسة العثمانية ودورهم الرئيسي في اتخاذ القرارات قد استمر حتى نهاية العهد العثماني، فلما وقع بعض الأسرى الفرنسيين بيد الأهالي عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر أُمر بقتلهم، ويقول في هذا بفايفر: "... **روى لي أستاذي أن القبائل لم يقتلُ الفرنسيين من تلقاء أنفسهم، وإنما قتلوهم بناء على أخبار سرية وصلت إليهم... ولم يعرف... أكانت تلك الأوامر صادرة عن الداي أم عن الوزير**

أم عن أحد المرابطين..." (بفايفر، 1974، ص 71)، وفي هذا إيحاء واضح لمدى استمرارية تأثيرهم، ومدى استمرارية الحكام في الاعتماد عليهم، فقرارهم منفذ شأنه شأن قرار الداي أو الوزير.

الحال نفسه بالنسبة للسياسة العثمانية تجاه الطرق الصوفية، فقد استمرت حتى نهاية العهد العثماني على الرغم من سلسلة الثورات التي قادها شيوخ الطرق الصوفية ضدهم (العروي، مجمل تاريخ المغرب، 1999، ص 76)، ربما المحافظة على الحكم لديهم كان أولى من أي أمر آخر، فنجد أنهم تقربوا من الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية فقط بمجرد ما أحسوا بدنو الخطر الفرنسي، حيث قاموا بزيارة قبور الأولياء الصالحين وذبح الأغنام عندها (بفايفر، 1974، ص 75)، فبعض هذه الأحداث تدعم الفرضية التي سبق وأن طرحناها والمتعلقة بأن "**تبعية الإيالة للدولة العثمانية**" و"**استمرارية حكمهم**"، هو محور كل السياسات التي انتهجها الحكام.

وبهذا تمكن الحكام العثمانيون في الجزائر من اتخاذ الطرق الصوفية كأداة إستراتيجية لإدارة شؤونهم السياسية والاقتصادية، واستعانوا بشيوخها لحل مختلف المشاكل الداخلية وحتى الخارجية، مستغلين في ذلك ازدياد نفوذها على المجتمع (Filali, 1998, p. 9)، والحقيقة أنه كما كان للمتصوفة الدور الجوهري في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر كان لهم دور مماثل في تدعيم هذا الحكم واستمراريته وتبعية الجزائر للدولة العثمانية، لدرجة أن هذه الفرق الصوفية بمجرد أن سحبت دعمها للعثمانيين وأعلنت الثورات ضدهم انتهى بعده وبمدة وجيزة حكمهم بالإيالة (ترمنجهام، 1994، ص 123)، فكانت هذه الثورات إحدى أهم أسباب وعوامل سقوط الحكم العثماني بالجزائر.

4. دور الطرق الصوفية في دعم الحكم العثماني

في ظل تراجع السلطة الزمنية الحاكمة بالجزائر وانقسام السكان حول بعض الحكام المحليين، والذي تزامن مع تحرشات الصليبية على سواحل البلد، والدور الجوهري الذي لعبه المتصوفة في مجالات عدة، حيث كانوا هم أول من رفع راية الجهاد وحمل على عاتقه مسؤولية الدفاع عن الإسلام، فتحولت زواياهم إلى مراكز تأطير وتجنيد، غير أن هذا لم يكن كافيا للتفوق على العدو، فلا بد لهم من قوة حليفة تشاركهم مهمة الجهاد، والتي تولتها القوة العثمانية -كما ذكرنا سابقا- (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 460).

فكانت هذه بداية العلاقة بين الطرفين والتي تحولت فيما بعد لسياسة انتهجتها الدولة العثمانية للمحافظة على سيطرتها بالمنطقة، وربما قبول المتصوفة لهذا التقرب أو ما يمكن أن نسميه بالتحالف كان نتيجة اشتراكهم والعثمانيين في "**الحس الجهادي**"، ومن أجل الاحتماء بهم (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 197، 464)، فالعلاقة بينهما كانت دينية منذ البداية.

والمعلوم آنذاك أن الفكر الديني هو السائد، إذ نجد مثلا ابن فكون قال عن ضرورة انضواء قسنطينة تحت الحكم العثماني: "... **هؤلاء الترك قدموا من حضرة السلطان العثماني، وهم من أبناء جنسه ونحن في بيعته وتحت حكمه...**"، فالدولة العثمانية دينية الطبع، ويظهر هذا في نظامها الذي تحكم به المناطق التابعة لها من عدل وعلى نمط الشريعة (العنتري، 2007، ص 57)، فربما هذا الطابع الذي جعل شيوخ طرق الصوفية

يوافقون على حكم العثمانيين للمنطقة، إلى جانب ما قدموه لهم من احترام ومن مكانة سياسية واجتماعية جد فعالة (Boyer, 1966, p. 18)، نظرا لأهميتهم وأهمية طرقهم التي تمتلك التأثير الكبير على المجتمع وحتى على سياسة البلد لكثرة أتباعهم (Brosselard, 1859, p. 5).

1.4. آليات الطرق الصوفية في دعم الحكم العثماني

كان للمتصوفة إستراتيجية وسياسة مماثلة لسياسة العثمانيين تجاههم، وأهم دور قاموا به هو المساهمة في إخماد الثورات ضد الحكم العثماني، والعمل على إحلال الأمن للحفاظ على الحكم وتثبيته، كما كانوا يعتبرون محكّمين في الصراعات القائمة بين البايات والأسر الحاكمة أو بين الأسر والقبائل، ومثال هذا أنهم تدخلوا لفك الصراع الذي دار بين القوات العثمانية وقبائل زواوة سنة 1642، كما كان لهم تدخل قبل ذلك لإخماد ثورة أحمد بن السخري سنة 1637 (معاشي، 2015، ص 258-259).

فلما راسل يوسف باشا الشيخ محمد الساسي البوني، يدعوه للتدخل وإخماد هذه الثورة لبى ذلك، كما عاهده بأن لا ينس ودّه ولا ينقض عهده (سعد الله، أربع رسائل بين باشاوات الجزائر وعلماء عنابة، 1979، ص 21-24)، وهذا دليل على مدى الاتفاق والتقارب الحاصل بين الطرفين، وبالتالي ساهم المتصوفة بشكل كبير في استمرار تبعية الجزائر للباب العالي بإحلالهم الأمن قدر المستطاع.

ومن خلال هذا الطرح نجد أن الحركة الصوفية اعتمدت إستراتيجية الوساطة والحماية بين الحكام والمجتمع وتجاه السلطة بصفة عامة، الأمر الذي جعلها تسيطر على مجرى الأحداث، فلو لم يكن للمتصوفة دخل ووساطة بين الحكام العثمانيين والمجتمع، كيف سيحدث تلاؤم وانسجام بينهم، والذي يؤدي إلى طاعتهم والانضواء تحت حكمهم والاستجابة لقراراتهم، خاصة وأن العثمانيين -كما ذكرنا في السابق- غرباء عن المنطقة لغويا وثقافيا، ولا يملكون أي معرفة عن التركيبة الذهنية للمجتمع، فالروابط الجامعة لهذين الطرفين قليلة إن لم نقل منعدمة، الأمر الذي جعل دور المتصوفة يبرز وبشكل أساسي في خلق نوع من الترابط بين الفئة الحاكمة والمحكومة.

ويمكننا اعتبارهم أنهم قد ساهموا بدرجة كبيرة في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية وفي استمرارية حكمهم لها، فهم المتحكمين بالعنصر الأساسي والفاعل في الأحداث وهو المجتمع، وفرضا لو كان المجتمع رافضا لفكرة الانضمام للحكم العثماني، حتى وإن تم ذلك فأمر الرفض الاجتماعي سيعجّل بسقوطه في فترة وجيزة، بينما الحكم العثماني في الجزائر نجد أنه استمر لفترة طويلة حتى وإن تخللته المعارضة في بعض الفترات (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، ص 210).

لم يقتصر دور المتصوفة على حل النزاعات وإحلال الأمن فقط، بل أحيلت لهم كذلك مهمة مرافقة القوافل التجارية والقوات العثمانية حتى لا يعترضها قطاع الطرق، وكذا مهمة جمع الضرائب من السكان باسم السلطة المركزية (معاشي، 2015، ص 260)، ولعل هذا من أهم ما يحتاج فيه الحكام للشيوخ المتصوفة، فالكثير من القبائل ما ترفض الأداء الضريبي خاصة إذ ما أُرهق كاهلهم كما حدث في العديد من المرات خلال العهد

العثماني، فيُعتبر تدخل المتصوفة حلا وتجاوزا لكثير من الصراعات، كما هو الحال لما تدخلوا وأنقذوا العثمانيين من مواجهة ثورة القبائل (سعد الله، على خطى المسلمين حراك في التناقض، 2009، ص 195).

هناك صورة أخرى لدور المتصوفة مع العثمانيين، حيث ساعدوهم كذلك في صد أي هجوم خارجي ضد الإيالة، وهو أساس هذا التحالف القائم بين الطرفين منذ البداية، فشاركوا في صد الهجوم الإسباني على الجزائر سنة 1775 وكان لهم مقابل هذا امتيازات، بحيث منح محمد عثمان باشا (1766-1791) (العروي، مجمل تاريخ المغرب، 1999، ص 73)، أحد الشيوخ بهذه المناسبة إدارة المنطقة التي يقطن بها وأرسل له ختما وقفطان التعيين (معاشي، 2015، ص 259-260)، وهذه إحدى العادات السياسية المتبعة من قبل الدولة العثمانية، وبالتالي قد صبغ تقربهم هذا بالطابع الرسمي، وربما هو العامل الذي ساعد في استمرارية علاقة التحالف بينهما رغم بعض مراحل التوتر، فقد بقي اعتماد الحكام على المتصوفة في تعبئة الجماهير أو تطبيق القرارات مستمر حتى نهاية العهد، حيث اعتمدوا عليهم في شحن الأهالي لإعلان الحرب ضد الهجوم الفرنسي على مدينة الجزائر عشية الاحتلال (بفايفر، 1974، ص 73، 75)، وفي ذلك دلالة واضحة على استمرارية السياسية العثمانية تجاه المتصوفة وعدم انقطاع علاقتهم.

على الرغم من اعتماد الحكام إستراتيجية أطرت علاقتهم بالمتصوفة، وما منحوهم من امتيازات مادية ومناصب شرفية، إلا أن هذا لم يضمن استمرارية ولاء المتصوفة للعثمانيين ولا تحالفهم معهم، والحال نفسه بالنسبة للعثمانيين، الذين لم يتبعُ سياسة ثابتة مع المتصوفة، فقد كانوا يتقربون منهم وقت الحاجة ويهمشونهم وقت الرخاء، ما جعل قادة الطرق الصوفية يساندون الأهالي المنهكين من الثقل الضريبي المفروض عليهم، وكانت نتيجة هذه المساندة أن احتجوا وأعلنوا ثورات ضد الجهاز الحاكم بالبلاد، وما ميز هذه الثورات أنها كانت في أزمنة متقاربة وبمناطق مختلفة غطت بالمجمل المجال الجغرافي كله، فكانت هناك ثورة بن الأحرش سنة 1804 شمال قسنطينة، وثورة درقاوة سنة 1805 لتندلع مرة أخرى سنة 1812-1817 بالغرب الجزائري، والثورة التيجانية سنة 1816 (سعيدوني، 2012، ص 56-57).

وقد أجهد الحكام في مواجهة هاته الثورات لتهديدها الأمن الداخلي للبلاد وحتى الوجود العثماني به، ما جعل الداي عمر باشا (1815-1817) (حمدان، 2005، ض 114) يراسل السلطان العثماني ليمده بالمساعدات سنة 1816، وهذا ما جاء في فحوى الرسالة: "... **واجبكم هو معاونتنا بإرسالكم الأوجاق والأسلحة خصوصا عندما ظهر هذا المهدي الكاذب منذ خمس وعشر سنوات في غرب وشرق الجزائر، لقد ثار علينا ... هاجم العساكر الأتراك... وعليه نعلمكم أن عددا من الموتى قد سُجل إثر المعارك** ..." (التميمي، 1972، ص 250)، وهذا تعبير صريح على مدى تهديد هذه الثورات للحكم العثماني بالجزائر ومدى خطورة الوضع، فهم يعلمون حجم الالتفاف الجماهيري حول المتصوفة، وما يمكن أن يحقق ذلك من نتائج، كما تبين لنا هذه الرسالة تأثير وأهمية موقف المتصوفة لدى الحكام، فبمجرد معارضتهم للسلطة تم الاستنجاد بالدولة العلية.

وما ينبغي تسجيله بهذا الصدد أن أسباب سقوط الحكم العثماني في الجزائر عديدة، لا يسمح المقام هنا بالحديث عنها أو تفصيلها، غير أنه يمكننا أن نعتبر ثورات المتصوفة كانت إحداها، فالحكم العثماني لم يدم كثيرا بعد ثورات الطرق الصوفية التي شهدتها الإيالة، والمتصوفة الذين كانوا في يد الحكام أداة إخماد تمردات السكان وثوراتهم على الحكم المركزي، أصبحوا معارضين لهم، فأحد أهم مصادر أمن الدولة أصبح رمز المعارضة والثورة، وقد كانت معطيات المحيط العام آنذاك مؤشرا لهذا، فبتراجع موارد النشاط البحري كان لابد للعثمانيين تعويضه، فوجدوا في زيادة وتنويع الضرائب المفروضة على السكان خير بديل لذلك، ومع انشغال الحكام وعزلتهم عن كل فئات المجتمع بما فيهم المتصوفة، كان هؤلاء لسان مجتمعهم وثاروا معهم ضد السلطات العثمانية (سعودي، 2018، ص 65).

وهكذا، يمكن القول إنه مثلما كان التقرب من المتصوفة إستراتيجية اتبعها العثمانيون لتثبيت حكمهم بالجزائر، والحفاظ على استمراريته وتبعية الإيالة للباب العالي، كان تهميشهم عامل مؤثر ساهم في انهيار الحكم العثماني بالجزائر، وإن لم يكن ذلك بشكل مباشر، إلا أنه عرقل مهام الحكام العثمانيين، من خلال الثورات التي قاموا بها والتي زادت من تأزم الوضع أكثر بالإيالة.

خاتمة

كان للتصوف دور كبير في قيام الدولة العثمانية، مثلما كان له دور في توسيع رقعتها نحو بلاد المغرب بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة، وإلى جانب الاعتقاد الروحي الذي كان لدى العثمانيين، نجد أن الحركة الصوفية كانت منتشرة بالجزائر قبل مجيئهم، ولها أثر تجلى أساسا في كثرة الطرق الصوفية المعبرة بدورها عن خلفيات سياسية ودينية واجتماعية أكسبها وزنا اجتماعيا كبيرا، الأمر الذي جعل العثمانيين ينتهجون سياسة للتقرب منهم، وجعلهم أداة داعمة لبسط نفوذهم والمحافظة على استمراريته مقابل منح رجال الطرق الصوفية امتيازات مادية وأخرى شرفية، وهذا ما يجعلنا نخلص إلى مجموعة من النتائج:

تعد سياسة التقرب من شيوخ الطرق الصوفية إحدى السياسات التي ساهمت في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر ودعمت استمراريته مدة ثلاثة قرون.

قام شيوخ الطرق الصوفية بعدة وظائف جوهرية منحتهم مكانة ووزنا في الأوساط الاجتماعية، وكان ذلك أساس تحالف الحكام العثمانيين معهم قصد التقرب من الأهالي وكسب ولائهم.

حققت الإستراتيجية التي اعتمدها العثمانيون في التحالف مع الطرق الصوفية أهدافها، فبمجرد تقرب الحكام من شيوخها أكسبهم ولاء أتباعهم.

اتبع شيوخ الطرق الصوفية في الجزائر سياسة مماثلة لسياسة الحكام العثمانيين في التحالف معهم، فكلما كانت هناك امتيازات وتبجيل للمتصوفة تحقق التقرب أكثر بين الطرفين.

لم تكن العلاقة بين الطرق الصوفية والسلطة العثمانية في الجزائر مستقرة، بل كانت مجرد انعكاسات ونتائج لمعطيات ظرفية، يتحكم فيها مدى استقرار الحكم العثماني في الجزائر من عدمه.

تأرجح العلاقة بين السلطة الروحية المتمثلة في المتصوفة والسلطة السياسية المتمثلة في العثمانيين بالجزائر بين الود والتوتر، يعود إلى تحكم المصالح الشخصية والسياسية بها، غير أن هذا لا ينطبق على كل المتصوفة والحكام، بل منهم من بنى هذه العلاقة على أساس الدين والمصلحة العامة.

شهدت إيالة الجزائر بداية القرن التاسع عشر تشابك مجموعة من المؤثرات الداخلية والخارجية ومن بينها الخلاف الذي حدث بين رجال الطرق الصوفية والحكام العثمانيين، والذي ساهم في انهيار حكم العثماني بها.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: باللغة العربية

1. ابن مريم، الشريف، (1908)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر، المطبعة الثعالبية.
2. الأرقش، دلندة، الأرقش، عبد الحميد، وبن طاهر، جمال، (2003)، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، تونس، مركز النشر الجامعي.
3. بربروس، خير الدين، (2013)، **مذكرات خير الدين بربروس**، (محمد دراج، المترجمون) الجزائر، شركة الأصالة للنشر.
4. بفايفر، سيمون، (1974)، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، (أبو العيد دودو، المترجمون) الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
5. بكاي، رشيد، (ديسمبر, 2011)، **تأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني**، مجلة الباحث، (8)، الصفحات 207-256.
6. بوعزيز، يحيى، (2009)، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب** (المجلد 1)، عين مليلة، دار الهدى.
7. بونابي، الطاهر، (2004)، **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين 12 و13 الميلاديين**، عين مليلة، دار الهدى للطباعة والنشر.
8. ترمنجهام، سبنسر، (1994)، **الفرق الصوفية في الإسلام، (عبد القادر البحراوي، المترجمون)** الإسكندارية، دار المعرفة الجامعية.
9. التميمي، عبد الجليل، (1972)، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871**، تونس، الدار التونسية للنشر.
10. جاب الله، الطيب، (أكتوبر, 2013)، **دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري**، معارف، (14)، الصفحات 133-150.
11. جبري، عمر، (سبتمبر, 2019)، **العقيدة العسكرية للجيش العثماني في الجزائر من خلال نظام الدفشرمة أنموذجا 1518-1830**، مدارات تاريخية، 1(3)، الصفحات 132-146.
12. الحسني، عبد المنعم القاسمي، (2006)، **أعلام التصوف في الجزائر منذ البداية إلى غاية الحرب العالمية الأولى**، مسيلة، دار الخليل القاسمي.
13. حمدان، بن عثمان خوجة، (2005)، **المرآة**، (محمد العربي الزبيري، المترجمون) الجزائر، منشورات ANEP.
14. دراج، محمد، (2012)، **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1542)**، الجزائر، دار الأصالة للنشر والتوزيع.
15. دوتي، إدموند، (2014)، **الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، (محمد ناجي بن عمر، المترجمون) الدار البيضاء، إفريقيا الشرق.
16. سالم، أحمد، (2011)، **السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن 16**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة.

17. سعد الله، أبو القاسم، (ماي-جوان, 1979)، **أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة**، مجلة الثقافة، (51)، الصفحات 13-29.

18. سعد الله، أبو القاسم، (1998)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، (المجلد 1)، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

19. سعد الله، أبو القاسم، (1998)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، (المجلد 4)، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

20. سعد الله، أبو القاسم، (2009)، **على خطى المسلمين حراك في التناقض**، الجزائر، عالم المعرفة.

21. سعودي، أحمد، (مارس, 2018)، **الإدارة العثمانية في الجزائر والقوى الروحية -الطرق الصوفية- بين التوائم والتصادم**، مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، 3(9)، الصفحات 55-65.

22. سعيدوني، ناصر الدين، (2012)، **النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني**، الجزائر، البصائر للنشر.

23. شاطو، محمد، (2018)، **نظرة المصادر الجزائرية والأجنبية إلى السلطة العثمانية في الجزائر**، الجزائر، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع.

24. صادق، محمد حاج، (1964)، **مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

25. صحراوي، عبد القادر، (مارس, 2012)، **الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني (16-19م)**، مجلة الحوار المتوسطي، (3-4)، الصفحات 25-37.

26. طوبال، فاطمة الزهراء، (2019-2020)، **النخبة الثقافية والسلطة في الجزائر في عهد الدايات 1671-1830**، (أطروحة دكتوراه)، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة أحمد بن بلة، وهران.

27. عبد الرحمن، تركي، (2008)، **نشأة الطرق الصوفية بالجزائر دراسة تاريخية**، الملتقى 21 التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة، الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية، أدرار.

28. عبد العال، بديعة محمد، (2009)، **الفكر الباطني في الأناضول**، القاهرة، الدار الثقافية للنشر.

29. العجيلي، التليلي، (1992)، **الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية** (المجلد 2)، منوبة، منشورات كلية الأدب.

30. العروي، عبد الله، (1999)، **مجمل تاريخ المغرب**، (المجلد 3)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

31. العروي، عبد الله، (2009)، **من ديوان السياسة**، الدار البيضاء، المركز الثقافي الغربي.

32. العماري، الطيب، (جوان, 2014)، **الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر التحول من الديني إلى الدنيوي ومن القدسي إلى السياسي**، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، 6(15)، الصفحات 123-140.

33. العنتري، صالح، (2007)، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها**، الجزائر، دار هومة للطباعة.

34. العيد، مسعود، (أفريل, 1988)، **المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني**، مجلة سيرتا، (10)، الصفحات 4-30.

35. غربي، محمد، (جوان, 2018)، **السلطة الروحية للزوايا ودعائمها بالجزائر**، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، 9(1)، الصفحات 125-146.

36. الفكون، عبد الكريم، (1987)، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

37. المحامي، محمد فريد بك، (1981)، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، بيروت، دار النفائس.

38. معاشي، جميلة، (2015)، **الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية.

39. المعبدي، حنان عطية الله، (2007-2008)، **التصوف وأثاره في تركيا إبان العصر العثماني عرض ونقد** (أطروحة دكتوراه)، كلية التربية للبنات، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

40. ممدوح، غالب أحمد بري، (2019)، **تاريخ التصوف في الدولة العثمانية: الطريقة البكتاشية أنموذجا دراسة حول علاقة الدين بالسياسة في الدولة العثمانية**، برلين، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية.

41. مؤيد، العقبي صلاح، (2002)، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها**، بيروت، دار البراق.

42.نفطي، وافية، (2016–2017)، **الوقف في مدينة الجزائر من أواخر القرن 18م إلى منتصف القرن 19م**، (أطروحة دكتوراه)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر، باتنة.

ثانيا: باللغة الأجنبية

.1 Boyer, P. (1966), Co**ntribution à L'étude De La Politique Religieuse des Turcs Dans La Régence D'Alge**r, Revue De L'Occident Musulman Et De La Méditerranée, (1), pp. 11-49.

.2 Brosselard, C. (1859), **Les Khouan: De La Constitution des Ordres Religieux Musulmans En Algérie**, Alger, imprimerie de A. Bourget.

.3 Cat, E. (1889), **Petite Histoire De l'Algérie Tunisie-Maroc** (Vol. 2), Alger, Adolphe Jourdan.

.4 Depont, O., & Coppolani, X. (1897), **Les Confréries religieuses Musulmanes**, Alger, typographie et lithographie Adolphe.

.5 Féraud, L. (1863, Janvier), **Un Voeu D'Hussein Bey Constantine 1807**, Revue africaine, 7(5), pp. 81-95.

.6 Filali, K. (1998), **Sainteté Maraboutique Et Mysticisme**, Insaniyat (3.(

.7 Nacib, Y. (1988), **Chants Religieux Du Djurdjura**, Paris, Sindbad.